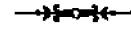


مخائف من تاريخنا القومي

قاسم أمين - الرجل

للأستاذ أحمد خاكي



اشتهر قاسم أمين بدفاعه عن المرأة لأن ذلك كان أوضح ما كتب عنه ، لكنه عندنا من أكبر المصلحين المصريين الذين ظهرُوا في أوائل هذا القرن . وليس دفاعه عن المرأة إلا شعبة من آرائه في الحرية والتربية واللغة وسائر وجهات الإصلاح . ولو أنك تصفحت كتابه قبل أن تقرأ كتابيه في « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » لمحت عقلية جديدة نفدت وراء الحجب التي تكاثفت على عقول المصريين خلال قرون طويلة ، ورأيت كيف تستطيع النفس الحساسة أن تندس إلى ما وراء الحجب فتلقى الحقيقة سافرة غير مقنعة ، ثم لشاقتك من حياة هذا الرجل أنه كان شجاعاً ، ولا تخفت من حياته مثلاً أعلى للتفاني دفاعاً عن الفكرة

ظهر في أعقاب القرن الماضي قليل من أمثال قاسم أمين ، لكنهم لم يلقوا ما لقي هو من العنت والسخرية والاستهزاء . كان يعيش أكثر أضرابه في أجوائهم ، لكن قاسماً كان يعيش في جو خاص به هو نفسه . وذلك ما استمدى عليه المتعصبين من أصحاب الدين وأنصاف التملين من أصحاب العلم ؛ وقليل أولئك الذين قدروا تلك النفس الحساسة التي تؤمن بالحرية لإيمانهم بنعم الحياة . وكثير أحسوا مثل إحساسه بما كانت ترسف فيه المرأة المصرية من أغلال ، لكن أحداً من هؤلاء لم يؤت من شجاعة النفس ما استطاع أن يصمد به للمهاترين والمغالين ممن أعمتهم التقاليد على أنه ليس يعنيها اليوم في حديثنا عنه وجوه الإصلاح التي نبه إليها وتحديث فيها وإنما يعنيها أن ترى قاسم أمين الرجل وأن تتعمق في درس تلك النفس الزكية التي أوتيت كثير آمن الغضب الكريم . وأشهد لقد همت بالكتابة عن النقاش الذي دار بينه وبين الدوق داركور ، لكننا رأيت أن الكلام في ذلك سوف يصبح ناقصاً لا فناء فيه ما لم آخذت عن قاسم أمين « الرجل » لأن قاسم أمين

« الرجل » هو الذي غضب للقومية المصرية ، وهو الذي غضب للإسلام والمسلمين ؛ وهو بعد ذلك الذي دافع عن مصر والإسلام بحرارة المجاهد الرشيد

وأول ما يمتاز به قاسم أمين « الرجل » نفس محسنة تجيش بمختلف العواطف ، فهو قد أوتي الكمال من الحس الدقيق والشعور الرفيف ، وهو من أول المصريين الذين اعترفوا بأن النفس جماع لمختلف العواطف والشاعر والوجدانات إلى غير ذلك مما يتصل بالدراسات النفسية الحديثة . ولملأه أحد المصلحين القلائل الذين اهتموا إلى تلك النتائج قبل أن يتعمق الناس في دراسة علم النفس . فهو يعترف بأن الإنسان مجموعة من الأعصاب تتأثر بالبيئة التي يعيش فيها ، وأن القلب الذي يكنّ البغض هو نفسه الذي يكنّ الحب ، وأن النفس الشريرة تنمو - إذا نمت - لأنها تصادف جوّاً صالحاً يؤثر فيها

وقد كان شديداً على البيئة التي نشأ فيها قاسم أمين أن تؤمن بما جاء به ، كان شديداً عليها أن تعترف للنتائج القيمة التي وصل إليها لأنها كانت بيئة نصف متعلمة ونصف متدينة في وقت معاً ، أما العلم الذي تشبث به فقد كان خليطاً من القشور والخطل ، وأما وجهتها الدينية فقد كانت ملتوية تمتاز بالنفاق والجدل . لذلك لم يعترف أنصاف التملين بالفراغ التي تندفع في نفس الإنسان ، ولم يحاول أنصاف التملين أن يتبصروا فيما انحدر إليهم من أصول القرآن والسنة . ولو أن أولئك هؤلاء قد اجتمعوا على أن يذوقوا ما ذهبت إليه تلك النفس الحساسة لرأوا رأياً آخر غير الذي بسطوا فيه أقلامهم وألسنتهم عن جهالة

على أن تلك النفس الحساسة التي اعترفت بالخير والشر جليماً هي النفس التي أعانت صاحبها على أن يستوعب الآثار الدقيقة التي مارسها في حياته . هو قد اعترف بالفراغ الدنيا وقد اعترف بالمواطف العليا ، وهو قد رأى الشر إلى جانب الخير ، فكان في كل ذلك يمثل العلم المتبصر الرشيد ، ولن يكون الزعيم ولا العلم حتى ولا القاضي أهلاً لما يرجى منه حتى يرى النفس الإنسانية من ناحيتها وحتى يقدر الشر والخير والذيلة والفضيلة ، وحتى يعترف بالشر والذيلة ويتفحص هذه وذلك ليترسم السبيل السوية نحو الخير والفضيلة وكل ما ينطويان عليه من معان

الجسمية والعقلية صدفه سعيدة وعارضا مؤقتا «
« فالخطيئة هي الشيء المتداد الذي لا محل للاستغراب منه .
هي الحال الطبيعية اللازمة لفرزة الإنسان . هي الميراث الذي
تركه آدم وحواء لأولادها التمساء من يوم أن اقتربا من الشجرة
الحرمة ... من ذلك اليوم البعيد لوثت الخطيئة طبيعتهما ، وانتقلت
منهما إلى ذريتهما جيلا بعد جيل . ذلك هو الحمل الثقيل الذي
تئن تحته أرواحنا الملتبئة شوقا إلى الفضيلة ... »

« وأخيراً ، فإن العفو هو الوسيلة الوحيدة التي ربما تنفع
لإصلاح المذنب ، فقلنا توجد طبيعة مهما كانت يابسة لا يمكن
أن تلين إذا هي عولجت »

وإذا أنت تترت بين يديك كل ما قيل عن تنازع الفرائز ،
وإذا أنت نشدت فكرة تأخذ بمجامع الفرض الأسمى للتربية ، لم تجد
تصويراً أدق مما ترسمه قلم أمين في تلك الكلمات . كل كلمة تنضح
من ينبوع من الحكمة والحق والحب ، وكل فقرة تهجيك بحقيقة
من الحقائق التي يعيها رجال التربية ويعلمون مداها في تربية العقل
والوجدان في العصر الحاضر . وإنما النفس الحساسة التي تفيض
رحمة وحنانا هي التي شمرت بكل ذلك . وقاسم أمين القاضي هو
الذي آمن ذلك الإيمان . أليس القاضي هو الذي يستطيع أن يبلغ
بإحساسه إلى مستمر النفس ويتمتع بشعوره إلى أطوارها ؟
إلا أنه كان قاضياً فذاً ذلك الذي استطاع أن يوفق بين العدل وبين
العفو . فهو يشعر بنواحي الضعف البشري كما يشعر بها شاعر مثل
شكسبير ثم لا يمنعه ذلك من أن تجري أحكامه بقسطاس مستقيم

قاسم أمين المربي وقاسم أمين القاضي هو القدي شعر بكل ذلك؛
لكن قاسم أمين المتفنن الأدب هو الذي استطاع أن يؤلف
بين العفو وبين العدل وأن يداول بين المثل الأعلى وبين الفطرة
الدنيا . والمتفنون في العالم هم أولئك الذين ألفوا بين التناقضات
وجمعوا الأبيض والأسود في صعيد واحد يفرقون بين هذا وذاك
بما يوحى إليهم من الحكمة وبما يلهمون من شعر أو حديث
أو تصوير . ولولا أن المتفنيين القدامى والمحدثين قد اعترفوا بالردية
والخطيئة والشر لما ورث العالم ذلك الفن الذي رقه على الإنسان
حياته . وقد أوتي قاسم أمين نفس المتفنن الأديب وهي التي ألهمته

تلك النظرة الدارسة هي التي أقامت عند قاسم أمين كل المعايير
التي حاول أن يطبقها على المجتمع المصري ، ولأنه كان يؤمن بأن
النفس جماع العواطف والوجدانات فقد قال : « إن الفضيلة والرذيلة
يتنازعان السلطة على نفس الإنسان في جميع أدوار حياته . فتارة
يخضع للأولى وتارة تغلب عليه الثانية ، ولا يوجد رجل مهما بلغ
في التربية والعلم يكون آمناً من السقوط يوماً في الرذيلة ، كما
لا يوجد رجل مهما أحاطت به الرذيلة إلا وفيه استعداد لأن يأتي
يوماً بأفضل الأعمال »

« وحقيقة الأمر أن أخلاق الإنسان ليست شيئاً يتم دفعة
واحدة ، وليس لها حد تقف عنده ، إنما هي في تحليل وتركيب .
في تكوين مستمر يعثرها الانحلال زمناً وتعود بعده إلى التماسك »
بل هو قد استطاع أن يقيم معياراً صحيحاً يقيس به رغبات
الرجال ونزعاتهم . ولست ندرى هل كان يتنبأ بكشوف علم النفس
الحديث حين قال : « إن الإنسان أسير الشهوات ما دام حياً .
وإنما تختلف شهواته باختلاف منه : فشهوة اللعب عند الطفل ،
وشهوة الحب عند الشاب ، وشهوة الطمع عند رجل الأربعين .
وشهوة السلطة عند شيخ الستين ، جميعها شهوات تعرض صاحبها
للفوات واقتراف الخطايا »

وقد كان قاضياً ، على أنه كان ينظر إلى نفس المجرم نظرة دارسة
أخرى . كان يرى أن المجرم مسير أكثر مما يكون غيراً ، وأنه
« لا بد أن تكون النفاية النهائية للتربية الأدبية هي العفو عن
الخطيئة — العفو عن أكبر خطيئة ، العفو عن كل خطيئة »

« هل الخطيئة مسئول أو غير مسئول ؟ وما هي درجة مسئوليته ؟
مسألة عظيمة يجب على من يريد الحكم على غيره أن يحلها . لكن
حلها يكاد يكون محالاً ، إذ لا يستطيع أحد أن يلم بجميع العوامل
التي تتركب منها الذات الإنسانية بوجهها الأدبي والمادي ، والقليل
الذي يعلمه من ذلك يبين أن سلطة الإرادة على النفس محدودة
وخاصة لمؤثرات كثيرة شديدة تتنازعها وتقارعها وتضعف قوتها
على نسبة مجهولة ومقدار لا يصل إلى تقديره عقلنا . وكل تاريخ
الإنسان في الماضي يدل على أنه إن لم يكن متولداً عن الحيوان
المفترس مباشرة ، فهو مشابه له في شره وأطاعه وشهواته . خلق
عليل النفس كما هو مريض الجسم . خلق على أن تكون صحته

على وقائع لم تبينها نخيلة المؤلفين ، ولا مهارة الممثلين » .

وشئ آخر شارك قاسم أمين فيه أهل الفن والأدب ، ذلك هو الشعور بالجمال . فلقد كان خياله سخيا لدنا ، اتسع لألوان كثيرة من الجمال . وقد حاول أن يسبغه على غرائر الفطرة الأولى التي اعترف بها . فهو إذا اعترف بأن الإنسان يولد شريراً فقد ذهب إلى أن الغريزة قد يستعمل بها إلى المكان الأسنى . وهو في ذلك يختلف عن كل معاصريه الذين ثاروا به . ولأن هؤلاء لم يدركوا ذلك الأساس الأول من أسس التربية والإصلاح فقد ظل قاسم أمين عرضة لسوء الظن ، وظلت كلماته عرضاً لسوء التأويل ؛ وهو قد كان يؤمن بأن « أعظم ما يصاب به المرء أن يحرم من الذوق السليم » وبأن « الذوق السليم هو الإحساس الفطري الذي ينمو ويتهدب بالتربية . هو الشعاع اللطيف الذي يهدي صاحبه إلى أن يقول ويفعل ما يناسب المقام »

وكأنما قد أهملت تلك النفس الحساسة حب الجمال إلهاماً ، وكأنما تشرفت على ما تندفع به نفس الإنسان من عواطف نبيلة ، كما اطلعت على ما يتدفق في أغوارها من غرائر وشهوات . والحق أن باحثاً يدرك الشر لا بد أن يرى ناحية الخير ناصعة بريئة . وقد داول هو البحث بين الخير والشر فأقام حدوداً جالية يرى أن مصر لم تأخذ بالكثير منها . فهو قد كان يرى أن « أكبر الأسباب في انحطاط الأمة المصرية تأخرها في الفنون الجيلة : التمثيل والتصوير والموسيقى ، وأنت هذه الفنون ترى جميعها على اختلاف موضوعها إلى غاية واحدة هي تربية النفس على حب الجمال والكمال ، فإلهامها هو نقص في تهذيب الحواس والشعور » وهو يقص عليك القصة التالية لتدرك تقديره للجمال ، ولترى في أية بيئة كان يعيش :

« دخلنا قصر اللوثر ، وكنا أربعة من المصريين لنتمتع النظر بأبداع ما جادت به قرائح أعظم الرجال في العالم ، فبعد أن تجولنا في غرفتين جلس أحدنا على أحد الكراسي قائلاً : أنا اكتفيت بما رأيت وما أنا منتظركم هنا . وقال الثاني : أتبعمنا لأنني أحب الشيء وأعتبر هذه الزيارة رياضة لجسمي ، وسار معنا شاخصاً أمامه لا يلتفت إلى اليمين ولا إلى اليسار ، وما زال كذلك حتى وصلنا

أن يرد حياة المجتمع في عصره إلى عناصرها الأولى فاستطاع أن يفرق بين الحق وبين الباطل واستطاع أن يدافع عن الأصول التي امتدى إليها في حرارة الأدباء والمفكرين

ولسنا ندري : إذا أتيح لقاسم أمين أن يكتب في الأدب التمثيلي أ كان يكتب من المرحيات ما يشاكل تلك النفس الفاتنة التي ترددت بين جنبيه ؟ لكن قاسماً كان فيما يكتب يستروح نفحة نقية من الأدب ، ويتهدى بشعور عميق من الفن . إلا أنه لأسرها لم يتجه إلى الأدب المرحي ، أو قل إنه أوتي الكثير من عدة الفن لكنه لم يتبها لإنتاج الفن نفسه . وإنما قوام الفن تلك الحساسية البريئة التي تستطيع أن تشفق على المجرم وأن ترى الفرائز الدنيا مصطنعة مع الأفكار العليا . إنها نفس حساسة تلك التي تستجيب لكل الآثار التي تلقاها ، وهي هي نفس المتفكرين الأدباء . وأى الرجال كان شكسبير ، وأى الرجال إيسن أو برناردشو إذا لم يمتازوا بتلك النفس الحساسة التي تستجيب لكل الدواعي ؟ وعندنا أن قاسم أمين كان أحد الذين انفعلوا لآثار البيئة التي عاشوا فيها ، ثم أعطوا بعد ذلك أضعاف ما أخذوا . وهو يشبه في ذلك جبهة الروائيين الذين صوروا الحياة كما كانت وكما ينبغي أن تكون . ولو أنه أوتي حظاً من التأليف الروائي لخرجت من بين يديه مسرحيات تطاول ما ألفه الآخرون . وحسبه أن كلماته التي لم تبلغ الستين صفحة لم تزل ممرضاً لنواح كثيرة من حياة الجيل السالف : معرضاً أحسن تصويره أي إحسان .

ولعلنا نطيل كثيراً إذا حاولنا أن نتأثر ما صورته قاسم أمين من حياتنا المصرية ، فهو في مرة يصف حياة نخبة من الشيوخ أحيوا إلى العاش وقضوا أوقات فراغهم في لعب الطاولة وفي مناقشات بريئة صاخبة عن البن . قضى الموت على أربعة منهم « وبقي خامسهم منفرداً كثيباً لا يتكلم ولا يخرج من بيته لا يدري ماذا يصنع بحياته ويرقب الموت الذي يخلصه منها . » وهو يكتب في مرة عن متطفل اقتحم بيت أحد أصدقائه وفيه قوم يسمرون فأفسد سمرهم . وهو في كل ما يصف شاعر بالجدل الذي يملك نفس الروائي ، وهو يقول في ذلك : « يقصد الناس التيارات لرؤية الحوادث الغريبة ، وسماع القصص المضحكة أو البكية . والمائل يكتفي بما يراه حوله ويسمعه ، يتفرج بجنا